المحاضرة رقم: 03

العلاقة بين نظرية الأدب والنّقد الأدبي والتّاريخ الأدبي

1- النّقد العربي وأصوله:

لقد تميّزت الدّراسات الأدبية بالتّركيز على مفاهيم النّقد الأدبي وأهم المناهج النّقدية التي تمّت الاستفادة منها في دراسة النّصوص الأدبية، فمرّة يتم استخدام هذا المنهج النّقدي ومرّة أخرى منهجا نقديا آخر، وهو دليل التّمايز والتّباين بين معايير ومبادئ المناهج النّقدية الحديثة.

كما ظلّت هذه المناهج في تطور مستمر، بحيث في حقبة زمنية معيّنة يتغلّب اتجاه نقدي على آخر...وقد ظلّت المناهج النّقدية في النقد الأدبي العربي الحديث مستمدّة في معظمها من المناهج النّقدية الغربية الحديثة.

فإذا تحدّثنا عن النقد الرّومانسي فقد كان أرسى قواعده الألمان والإنجليز، ثمّ ظهر فيما بعد الاتّجاه النّفسين كما ظهر النقد الواقعي الاشتراكي بعد الحرب العالمية الثانية، واستمّر عدّة عقود من الزّمن في النّقد العربي لارتباطه بإيديولوجية فكرية معيّنة، ثمّ ظهر في السّنوات الأخيرة ما يعرف بالاتّجاه الأسلوبي والبنيوي والسّيميائي والسّردي، وهي كلّها تيّارات لها علاقة بالدّراسات اللّسانية والنّصية الحديثة.

2- نظرية الأدب:

في هذا السّياق نجد أنفسنا مل مين بالتّمييز بين نظرية الأدب والنّقد الأدبي والتّاريخ الأدبين فنظرية الأدب هي مجموعة المعايير والمبادئ النّظرية البحتة، قد تكون في معظم الحالات مستمدّة من النّظريات الفلسفية، وهي ليست لها علاقة بالنّاقد الأدبي، لأنّها تقوم بدورها بوضع المفاهيم العامة للظّاهرة الأدبية، ليأتي النّاقد فيستمد مفاهيمه ومنهجه من نظرية الأدب.

وللتّأكيد فإنّه ثمّة نظريّات أدبية متعدّدة، ولا توجد نظرية أدبية واحدة.فالنّقد الواقعي الاشتراكي تعود أصوله إلى الفلسفة الماركسية والتي تعتمد أصلا على الجدلية المادية...النقد النفسي تعود أصوله إلى دراسات علم النّفس التي قام بها كل من "فرويد" و"كارل يونغ"

أ.د سعدية بن ستيتي

وغيرهما من الباحثين في مجال علم النّفس،.. ونظرية القراءة لها جذورها في الفلسفة الألمانية الظّاهراتية...، البنيوية متاثّرة بالدّراسات الأنتروبولوجية لـ"ليفي ستراوس"... وهكذا.

فقد كان "أرسطو" منظّرا في الفن والأدب، وكان "ابن الرّشيق" في كتابه العمدة منظرا أيضا،وكان "عبد القاهر الجرجاني أيضا منظرا في كتابه دلائل الإعجاز، وكان الآمدي ناقدا بين الطّائيين أبو تمّان والبحتري، وكان "رونيه ويلك" و"أوستن لورين" منظرين في الأدب،...

وممّا لا شكّ فيهن أنّ مفهوم نظرية الأدب ليس مفهوما موحّدا في جميع الحالات، فثمّة نظرية الأدب التي تقوم على الجدلية المادية أو الإنعكاس بين الفن والواقع، أو ما يدعى بالواقعية الاشتراكية، أو نظرية التّحليل النّفسي في الأدب، أو نظرية الفن للفن، أو الشّكلية، أو نظرية القراءة، ونظرية النّص (عند "تودوروف "و"رولان بارث")..وهي نظريات مستمدة من مفاهيم وفلسفات مختلفة.

3- العلاقة بين المفاهيم الثّلاثة:

العلاقة بين المفاهيم الثّلاثة هي علاقة تبادلية، وتظل نظرية الأدب تشمل النّقد الأدبي والتاريخ الأدبي، غذ لا يمكن إطلاقا استخدام مفهوم في عزلة عن المفهومين الآخرين، وكل منهما يستوعب الآخر، فلا يمكن استيعاب نظرية الأدب بمعزل عن النّقد والتّاريخ، ولا يمكن استيعاب النقد دون نظرية الأدب والتّاريخ، أو التّاريخ بدون نقد ونظرية أدب، فهناك إسهام بين النظرية والممارسة.

فنظرية الأدب هي التي تشرّع وتضع المفاهيم العامة والنّظرية للظّاهرة الأدبية، ثّم يأتي دور النّاقد فيستمدّ منهجه ومفاهيمه من نظرية الأدب، إلاّ أنّ نظرية الأدب ليست مستمدّة من الفراغ أو العدم، وإنّما هي أيضا اعتمدت على مجموعة من النّصوص الأدبية والنّقدية قديما وحديثا واعتمادا كذلك على التّاريخ الأدبين لأنّ المؤرّخ الأدبي له دوره في تصنيف الموضوعات الأدبية أو النّصوص، وهذا ما نجده مثلا عند ابن سلاّم الجمحي (النقد القديم) في كتابه طبقات الشّعراء، حيث وضع شعراء الجاهلية ثّم المخضرمين ثّم صدر الإسلام، وهكذا معتمدا في ذلك على مبدأ الزّمان والمكان.

وقد قامت محاولات لعزل التّاريخ الأدبي عن النّقد الأدبي اعتمادا على مبدأ مفاده أنّ التّاريخ يركّز على الظّاهرة الأدبية عند أديب ما مشتقّة من أديب آخر، في حين أنّ النّقد ينصّ على أنّ هذا النّص أفضل وأجود من هذا النّص.

إلاّ أنّ هذا التّمييز ليس صحيحا على الإطلاق، إذ أنّ التّاريخ الأدبي ليس محايدا أبدا عن العملية النقدية، وأبسط شيء هو التّمييز بين ما هو أدب وما ليس بأدب أثناء عملية التأريخ، وهذا يتطلّب عملا نقديا في حدّ ذاته، فالمسألة التي تتعلق بنقد نص من النّصوص، أو بمصادر وتأثيرات سيتطلّب دائما تقديم أحكام نقدية، كقولنا مثلا أنّ البحتري أخذ عن أبي تمّام أو أنّ أحمد شوقي أخذ عن المتنبي، والأمر في هذه الحالة يتطلّب معرفة خصائص البحتري أو أبي تمّام، ثمّ القيام بالمقارنة.

وثمّة حجّة أخرى يستخدمها أصحاب النّزعة التّاريخية، وهي : علينا أن نتملّك فكر وميول المراحل التّاريخية الماضية، ونقبل مقاييسها ونتدرّب على خيالهم وأسلوب تفكيرهم، فلو قمنا بدراسة الشّاعر امرؤ القيس، يجب دراسة حياته الشّخصية وعشيرته التي كان ينتمي إليها والأفكار والتّقاليد التي كانت سائدة آنذاك حتّى يمكننا التّعرف على معاني ومقاصد الشّاعر دون اللّجوء والاعتماد على العمل النّقدي.

إلاّ أنّ الحقيقة ليست كذلك؛ ذلك أنّ النّص الأدبي يعيش حياة مستقلّة، كما أنّ معناه يتحدّد عبر العديد من القرّاء أو النّقاد، إنّنا حين نقرأ قصائد المتنبي، فإنّه يستحيل علينا أن نقصر أنفسنا لنعيش في زمن المتنبي في القرن الثّالث من الهجرة، وننفصل عن بنياتنا الفكرية والحضارية والفنيّة التي اكتسبناها في القرن العشرين.

4- القارئ والنّاقد:

أمّا الإشكالية الأخرى التي تطرح نفسها بحدّة في هذا السّياق، ما علاقة القارئ بالنّاقد؟

إذا كنّا قد سلّمنا سلفا أنّ المعنى في النّص يتحدّد عبر العديد من القرّاء عبر الزّمن والعصور، إنّنا لا نخطئ إذا أكّدنا أنّ النّاقد هو قارئ في حدّ ذاته من غير جدل، وإنّما دوّن قراءاته على الورق وأحالها إلى نصوص أصبحت متداولة بين القرّاء أو النّقاد أيضا، ذلك أنّ النّاقد قارئ متمرّس يملك استعدادات ثقافية وفكرية وجمالية.

إنّ القارئ حين يقرأ قصيدة شعرية أو نصّا قصصيا أو روائيا، لا يلجأ إلى ما قاله النّقاد حول هذه القصيدة وذلك النّص، إنّما يقرا وأثناء القراءة فقط تكون المتعة الجمالية، ولمّا تنتهي القراءة يكون الأثر الجمالي قد انتهى...فهل يعود القارئ إلى النّاقد ليصحّح هذه المتعة الجمالية، ويقرأ ما قاله حول هذا النّص؟...في هذه الحالة يكون العمل اعتباطيا من غير

جدوى،...فحين نستمتع بقطعة موسيقية و نعجب بها بسبب ما أثارته فينا من سمو وبهجة فهل نعود على مفسّر وناقد؟ وحين نشاهد لوحة فنيّة لرسّام فهل نعود إلى ناقد؟...فهل القارئ يضع دائما إلى جنبه ناقدا ويظلّ هو أعمى لا يملك كيانا فنيّا وجماليا...

5- نظرية الأدب وعلم الجمال:

أمّا علاقة نظرية الأدب بعلم الجمال فتتحدّد في أنّ منظّر الأدب يستفيد حتما من الدّراسات الجمالية، ذلك أنّ الأدب موضوع من موضوعات الجمال، فالدّارس الجمالي يهتم بدراسة الرّائع والعظيم والمأساوي والكوميدي في الطّبيعة والكون والإنسان والمجتمع والفن، أمّا الأدب فهو يعكس هذه الموضوعات الجمالية يستوعبها ويقدّمها من خلال موقف جمالي يتملّكه الأديب أو الفنّان...أمّا القيمة الجمالية فهي متغيّرة وليست ثابتة بعد أن يحدث التّفاعل بين المتذوّق الجمالي والنّص الأدبي.

أ.د سعدية بن ستيتي